د . ميشال سليمان

الأثر المتبادل بين التطور الفني والتطور الاجتماعي في الشعر اللبناني الحديث

١ ــ الشعر بين تطوره الفني والتطور الاجتماعي

لست اذكر من الذي اكد ، بروعة البساطة ، ان القصيدة انما هي معطى اجتماعي ، وان المتلقي انما هو انسان على قسط ما من الوعي ، غير اني اخرج من هذا للاشارة الى العلاقة الجدلية القائمة بين الشاعر وبين المتلقي ، والتي تؤكد بدورها ان الشعر ، هو بالضرورة ، معطى اجتماعي .

وعندما ننطلق من هذه القاعدة في البحث ، فمعنى ذلك ان الشاعر في يقيننا هو الكائن الذي يعي الزمن وعيا حادا وعميقا في وقت معا. فالعلاقات المعقدة التي تقوم بين الزمن الذي يمكن قياسه ، وبين الزمن المعاش ، انما تحمل الشاعر على جعلها محسوسة ، او قريبة من الوعي العام . بهذا استطاع الشعر ان يقترب ، فيستبطن اهم القضايا التي يفرضها الزمن على الناس ، وان يلتزم ، بالتالي ، بتقديم صور حاملة بذاتها مفاهيم اساسية في جوهر الفن وفي طبيعته ، من مثل ، الشعر والخلود ، الشعر والموت ، الشعر والوجود ، الشعر والقدر ، الشعر والحب ، الى ما هنالك من موضوعات تستأثر بدرجات الوعي الانساني ، وتندرج في سياق بحثه عن مفاتيح لابوابها التي لما تنفتح .

اذن الشعر بطبيعة الحال ، هو ذو اثر فني متطور ، ومرتبط بمراحل تطور اجتماعي معين ، والشاعر الذي حمل ويحمل هم الفن الاثقل والاسمى ، هو قبل كل شيء كائن اجتماعي ، وكائن تاريخي بالضرورة . وكل محاولة ترمي الى تقليص حيثيته هذه وقصرها على وعي فني ملازم ذات الشاعر ، ووحي يأتيه من خارج وهمي ، تشكل نوعا من الرغبة في سجن الشعر والشاعر ضمن شرنقة حريرية بالغة الاتقان النسجي ، الا انها آيلة في النهاية الى نهايتهما معا ، ولسنا نعرف ، فيما نعرف ، نموذجا واحدا لشعر شاعر عزف عن تحمل ذلك الهم المشار اليه ، وثبت لعنصري النقد الكبير والتاريخ .

ولا ندحة لنا هنا عن القول بأن العلاقات التي تقوم بين الانسان وبين الواقع ، تتبدل باستمرار ، وفق الشروط الاجتماعية العامة القائمة بينهما ، بحيث يتحتم علينا التأكيد بأن الخلق الشعري انما يتعلق ، الى حد كبير ، بالوضع الاجتماعي والتاريخي لدى الشاعر الذي يتكون نفسيا واجتماعيا ، في بيئة تمارس عليه نوعا من التاثير ، يقل او يزيد ، او يتبلور وفق محصل ثقافي معين ، وارتباط بعلاقات اجتماعية طبقية معينة ايضا . فاذا ما حاول الشاعر ان يعبر عن ظاهرة اجتماعية ما ، او عن لاعجة ذاتية محض ، او انه رغب في الفيام بكشف فني في الوجود ، وفي ذاته ، بغية ممارسة تأثير ما على الواقع ، وعلى الاشياء ، وجد نفسه مضطرا الى اتخاذ موقف حاد ، وعلى قسط كبير من الوعي بالواقع الاجتماعي والتاريخي الذي يعيشه .

على ان مسيرة الشعر ، الاجتماعية والفنية ، بمقدورها ان تتوازى ، ان لم يكن عليها ان تصبح كذلك ، لكي نستطيع ان نحقق التعامل مع الواقع من اجل تبديله . فتصبح عملية الابداع الفني في الشعر ، عندئذ ، تمثلا واعيا للواقع الذي تؤثر فيه ، وتنعكس عنه ، عبر علاقة جدلية يتطور الاثنان وفق شروطها العامة . ذلك لان الشعر ، وكل فن غيره ، هو تحول خلاق من الواقع الاجتماعي الى الواقع الفني ، وهو في الوقت نفسه ، وبجدلية موضوعية ، شحنة طاقة ، بخصوصيات متنوعة ، لتحويل الواقع الفني الى قوة مادية فاعلة ، الى طاقة تغيير وتحويل في الواقع الاجتماعي والطبيعي ذاته ، الى رافد فني في مجرى النهر الكبير ، نهر الحياة والانسان ، يزيده ثراء وخصبا وقدرة على التطور » (١) .

ولقد عبر برتولد برشت عن هذه الحقيقة الاساسية بشكل جد واضح ، عندما اكد على انتمائه وموقفه من الواقع الاجتماعي والواقع الفني على السواء ، بقوله :

« تخليت عن طبقتي
واتخذت اصحابا لي
الناس المتواضعي المنشأ » .

ويخيل لنا ان مثل هذا الموقف ، يشكل بحد ذاته ، معادلا فنيا لوضع صاحبه ، كما يشكل ، بالتالي ، انتقاما من الواقع صارخا يهدف الى تحويله ، بمقدار ما يشكل ايضا اغناء للشعر عن طريق تمثله حركة الواقع المتباينة الايقاع والصيغ .

وبما ان الشاعر كائن يعيش على احساسه بالواقع الذي يحيط به ، فهو متصل شعوريا بالحدث والوضع ، بحيث يجد فيه التاريخ صدى رنانا ، سواء اكان ثوريا في موقفه من الحدث ، او الظاهرة ، او مجرد مصور لوجهها وعواملهما . وانما يكون الشعر في درجته العليا ، عندما يكون الشاعر في الموقف الذي ينطلق منه لمواجهة الواقع بغية تحويله تحويلا ثوريا وفق قاعدة فلسفية مبرأة من اوهام ، ومرتبطة بالعوامل الاساسية المحولة للتاريخ وللواقع على السواء .

ولكي يكون ما اسميناه بـ « الانتقام من الواقع » لدى الشاعر ،

---

(١) د . حسين مروة ــ الطريق ــ ت ١ ــ ٢ ــ ١٩٧٤

على المستوى المتوخى ، ينبغي لهذا الشاعر ان يتدرع بعوامل لا بد منها ،وهو في غمرة عمله الابداعي العظيم ، من مثل القدرة على التخيل ، والحدس الذي لا يعدو ان يكون محصل ثقافة عميقة وشمولية ، كما ينبغي له ان يستخدم لغة طيعة لمخاطبة اللحظات الهامة في حياة الانسان .

ويخطيء كثيرا الذين يظنون بان الشعر العظيم يستطيع ان يبرز للوجود بأي تخيل ، واي حدس ، واية لغة كان . فاذا لم يكن التخيل ضمن نطاق الوجود ، وكان الحدس الهاما ، او ما يضارعه من سميات ضبابية ، وكانت اللغة حاملة من السقم ما ينفي عنها القدرة على صياغة الصورة المعبرة والموحية بفكرة رؤياويه .. فان الشعر في هذه الحال يجيء في احسن معطاة ، معتلا ، يحمل في غضونه عوامل سقوطه ، ويجيء في ادنى ذلك المعطى ، مقنعا او مغطى بالمساحيق التي تحمل على الظن انه معافى ، وهو في الحقيقة ليس على شيء من ذلك .

من هنا ظاهرتا التعمية ، والصعوبة ، في الشعر الحديث ، اما الصعوبة فشفيعها في عملية الابداع ، ان الشاعر بمقدار ما يغوص في الواقع ، وبمقدار ما يستبطن عوامله وحركاته ، يصبح من حيث لا يدري ، اسير التعبير عن عدة قضايا في وقت واحد ، فيلجأ الى تكثيف الصورة ، والى تداخل الرؤى ، بحيث يجيء شعره مثقلا بالرموز والدلالات ، الا انها رموز ودلالات موظفة توظيفا فنيا رامزا ، موحيا ومؤثرا ، وقادرا على نقل التجربة الفنية الى الاخرين .

اما التعمية ، او الغموض ،فهي في الشعر ، كما في الفن باطلاق ترد الى قلقلة وقصور فكري ، يحاول الفنان او الشاعر ، الاستعاضة عنهما بالمحسنات الكلامية ، لكي يسد فجوة معينة ، فيجيء الشعر مرتبكا ، مملوءا بمواد خليط من مفردات ، وصور ، وصيغ ، لا رابط فيما بينهما ولا انسجام . ومن هنا ايضا التشابه بين العديد من الشعراء الذين لا يملكون مناذوات الشعر ـالا القدرة على رصف الكلام المندرج في اطر الغير الرؤياويه والاسلوبية . حتى لكأن الشعر في هذا الوقت يعاني من قلة الموضوعات ، او يعاني من قدرته على اكتشاف ما تقدمه حركة الواقع للشاعر يوميا من الموضوعات ، وما يرافقها من ايقاعات لا عهد له بها من قبل .

واما التخيل ، فاليقين في وجوبه ان الشعر باطلاق ، والشعر الحديث بخاصة ، يظل اسير فراغ اذا لم يتشربه بكل عروقه ،فلت: جوانبه . ولا بد لنا هنا من القول بان تخيل شيء من لا شيء ، لا يفضي الى شيء اطلاقا . فانا عندما اغادر مخيلتي الخاصة لباوغ الخلق الجديد ، وعرضه بالتالي ، فانني لا افعل الا اعادة خلق مواد في عالمي الخاص ، وفي العالم الخارجي المحيط بي . اذن : انا اضاعف ذاتي . وتكون المضاعفة هذه بمقدار ما استطيع الخروج من ذاتي الفردية الى الذات العامة .

وما كان يطلق عليه في السابق ، وحاليا ، معنى التحول ، ليس في الحقيقة سوى اندغام الشاعر بحدسه الذي لا يعدو هنا ان يكون الا محصل الثقافة والتجربة الجماعية متمثلة فيه ، مما يجعل الشاعر مثقلا بالوجود « اثقالا » يكاد يكون عضويا .يقولوالت‌وايتمان :

« وعرفت الصوان ، والفحم ، والطحالب الطويلة الخيوط
والاثمار ، وجذور الاطعمة
فاذا مجصص من قدمي الى راسي
بذوات القوائم الاربع والعصافير » (1)

واقول بصدد التجربة الشعرية :

« لم يكن لصا (الشعر) تحامته المزاليج المنيدة
لا ولا جنا تمنيني بجنات رغيدة
كان شلالا من الطحلب واللؤلؤ ، والاصداف ، والرمل ونارا
كان امواجا من الوهم .. توارى
في حنايا اضلعي الظمأى وثارا
واستفاقت في فمي الاحرف والالوان والالحان
والترب واحجار المتاهات الحيارى
ازهرت في انملي جمرا
وفي الافاق اجراسا وغارا » . (1)

واما اللغة الحديثة ، تلك ، فاغرب من عبر عن « كيميائها » العجيب ، الشاعر الياباني « تسورايوكي » من القرن العاشر بقوله :

« ان للشعر جذرا هو القلب البشري
وله الاوراق الاف الكلمات » .

وحسبنا ان نعرف من هذا القول ، ان اللغة في الشعر« (اللغة الشعرية) » لا توظف بشكل مجاني لكي تموت او تذبل ، بل لتزهر وتضج بالحياة . وهذا ما يجعلنا نميز بين الكلمة (المفردة) وبين اللغة (مجموع مفردات مندرجة في عبارة) اللتين تصبحانفي عملية العمل الشعري صورا معبرة عن عاطفة ، او ظاهرة ، او حدث ما . فاذا اللغة اداة تعبير وايصال جديدة ، واذا الصورة واقعجديد. من هنا معنى التجاوز والتخطي في مفهومنا للقصيدة الجديدة ،ضمن اطار الشعر العربي الحديث ،آخذة بمجمل العلاقة الجدلية القائمة بين مظهر المفردة الخارجي وبين جرسها وايقاعها ومعناها جميعا .

٢ ـ مكانة الشعر اللبناني الحديث من هذا كله

انطلاقا من هذا المفهوم لتطور الشعر فنيا واجتماعيا ، عبر القصيدة الجديدة في الشعر العربي الحديث ، لا بد لنا الان من تحديد مكانة الشعر اللبناني في هذا الاطار ، لكي ندلل بالتالي على مناحي تطوره الفني بازاء التطور الاجتماعي في لبنان .

وهنا تجدر الاشارة الى ان شعرنا هذا مر في عدة مراحل ، وكان في كل منها مجليا في بعض وجوهه وجوانبه ، ومنرسما في البعض الاخر خطوات من سبقه او عاصره من الروافد الحديثة في نهر الشعر العربي الكبير .

واذا ما انطلقنا من بداية مرحلة الثلاثينيات الاخيرة ، وهي على وجه التقريب ، المرحلة التي بدا وازدهر فيها الشعر العربيالحديث، الفينا شعرنا اللبناني يواكبها بفعالية ، ويسهم في عطاءاتها اسهاما جعله في مركز الريادة والسبق فيبعض الاحيان .

ففي بداية هذه المرحلة ، وهي ما نعورف على تسميته عندنا بالمرحلة الاستقلالية ، كان الواقع اللبناني ضاجا باعتمالات اجتماعية عديدة ، اتخذت وجوها للصراع متباينة : بورجوازية كبرى تريد ان تحل محل الانتداب الفرنسي وترثه . وبورجوازية متوسطة تطمع ببلوغ ما بلغت اختها الكبرى ، وبورجوازية صغرى مستغلة من الاثنتين معا ، وطبقة كادحة متمثلة بالعمال والفلاحين ، والمثقفين الثوريين ، وجماهير قطاعات الخدمات الدنيا ، التي تختلف مطامحها ومطالبها عن سائر الطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى ، علما بان لكل واحدة من هذه القطاعات اطرها الثقافية التي تحاول ان تبني لها على صعيد الادب والفن هيكلية ايديولوجية تتيح لها مركز الصدارة والتوجيه في موكب الحياة العامة .

اذن ، لقد تعددت وجوه الحياة اللبنانية وتبدلت على الصعيد الاجتماعي الامر الذي كان لا بد من ان يجد له تعبيرا على اصعدة الثقافة والادب والفن وكانت الارهاصة المؤاتية الاولى لهذا كله ، ان بدت الحاجة ماسة الى تغيير الاطر التقليدية ، لتصبح اكثر طواعية

(1) والت ويتمان : اوراق العشب . الترجمة الفرنسية ، مجلة اوروبا .

(1) « اليك عنا ايها الليل » ص ـ ٧٤ .

لاستيعاب النوازع الخاصة والعامة لدى كل من الهيئات الآنفة الذكر.

واذا ما استثنينا سائر القطاعات الادبية والفنية ، واقتصرنا على الشعر وهو موضوع حديثنا الان ، وجدناه يسعى في اتجاهات متضاربة ليستبطن ويعبر بالتالي عن كل هذه الفئات الشعبية التي تشكل المجتمع اللبناني .

اذن ، اضحى التجديد في المعايير الادبية والفنية ، وخاصة الشعر ، دعوة لا يمكن الاستجابة لها بشتى الاشكال والاتجاهات . وكانت بداية هذه الاستجابة مقصورة على المضمون ،وان تناولت بعض ظاهراتية القصيدة واشكالها . وقد تطور هذا الاتجاه حتى شمل قطاعا كبيرا من الشعراء اللبنانيين ، المختلفي الاتجاهات الفكرية ،والانتماءات الاجتماعية . واخذت الفوارق تتضح بمقدار ما كان كل فريق من هؤلاء يسعى لتدعيم وجهات نظره ومواقفه الايديولوجية والفنية عموما .

وعندئذ اخذ الشعراء الملتزمون بمفاهيم الواقعية ، والمتصلون بشكل او بآخر ، بالقضايا الوطنية ، اللبنانية والعربيه ، يعبرون بقصائدهم عما يدور في الواقع الاجتماعي اللبناني والعربي من احداث واعتمالات ونضالات ، ويصعدون هذا التعبير على صعيد القصيدة وشكلها وبنائيتها كما راح شعراء اخرون ، يختلفون عنهم في قضية الشعر ومفاهيمها ، ينطلقون في نتاجهم من وجهة كون الشعر طريقة فنية قوامها الرؤيه واللغه ، ووجوب احلالهما محل الاستكشاف الذاتي ، وتحرير القصيدة من كل قياس .

كان القسم الاول من هؤلاء الشعراء (الذين تحلقوا في مجلات كالطريق ، والثقافة الوطنية ، والاداب) يقفون موقف المهاجم للبنى الاجتماعية اللبنانية السائدة ، والمؤسساتها المهيمنة على السواد الاعظم من المواطنين ، ويرون فيها الحائل الاكبر الذي يحول دون التطور الاجتماعي والثقافي والفني(توفيق ابراهيم ، طانيوس منعم ، رضوان الشهال وسواهم)، ويشاركون ايضا بكل ما يتصل بمواقف الانسان العربي تجاه تراثه ، وواقعه ، وما يراد له على الصعيدين الاجتماعي والسياسي (خليل حاوي ، فؤاد الخشن ، روبير غانم ، حبيب صادق، الياس لحود وسواهم) ، وقد لازم فريق من هؤلاء الشعراء جانب التطور الاجتماعي على حساب التطور الفني في الشعر ، وجهدوا لكي يحتفظ شعرهم بالموقف والرؤية الفنية . ولازم فريق اخر جانب التطور الاجتماعي والفني معا ، فجاء شعرهم في مرتبة تراوح بين الرتابة وبين الابداع . كما لازمت قلة من هؤلاء الشعراء جانب التطور الاجتماعي والفني على وعي جدلي عميق ، فكان الشعر لديهم ابداعيا، رؤياويا ، حاملا الكثير من علامات الخلق في شكل القصيدة وفي مضمونها وايقاعها ، وواعيا دورها الفني والاجتماعي معا ، وارتباطها بالشعب ، والتاريخ ، والتراث ارتباطا بعيدا متطورا ، وابداعيا ملحميا في كثير من الحالات . وقد كانت لنا في هذا المجال اسهامات ظهرت في عدة اعمال لا سبيل لذكرها الان .

اما القسم الاخر من الشعراء اللبنانيين (فقد تحلقوا حول مجلة « شعر ») وكان همهم الاوحد ممارسة الشعر ، لا من اجل المساهمة بقضايا الواقع ، وانما من اجل اغراض الفن على العموم . وقد تمثلت دعوتهم هذه بعدم توظيف الشعر الا في هذا الاتجاه،متمثلين تجربة شعراء غربيين امثال اليوت ، وبوند ، وبرس . ونجدر الاشارة الى انه قد لازم هذا القسم من الشعراء اتجاهان اساسيان ، برغم كونهما منطلقين من محور تحرير شكل القصيدة من جميع الاقيسة والقواعد ، وجعلها مقصورة على موسيقاها الداخلية ، ومعتمدة على رؤياوية قائمة على ما تلمفردة من دلالة ابعد من اطار العبارة الشعرية.

وقد بقي الاتجاه الاول معتمدا على الموسيقى الخارجية والرؤيا المطلقة (جورج غانم)، بالاضافة الى اعتماده « قصيدة النثر » وسيلة للتعبير الشعري (يوسف الخال ، عصام محفوظ ، وسواهما) . اما الاتجاه الثاني فقد توصل الى فناعة نهائية بقصيدة النثر ،واعتبرها بالنسبة له نهاية ما يمكن ان تبلغه القصيدة او الشعر الحديث (لانسي الحاج ، شوقي ابو شقرا ، ادونيس وغيرهم).

ولا بد هنا من القول بان طبيعة المعاناة ، لدى كل من هذه الاتجاهات الشعرية المشار اليها آنفا ، هي التي كانت تملي على اصحابها طريقة في التفكير والتعبير الشعري ، كما تملي عليها تصورات متباينة لواقع ومستقبل القصيدة في الشعر اللبناني العربي الحديث.

فعندما نرى الفئة الاولى من الشعراء غائصة في الواقع اللبناني والعربي واتعالي ، مندرجة في قضاياه وانفعالاته الاجتماعية والفنية الثورية ، فاننا نرى كيف تتعامل مع الواقع اللبناني ، متخذة منه موقفا رافضا قائما على التعامل معه من اجل تبديله . وهي ترى وتعبر في شعرها عن الخلاص ،على انه عملية جماعية ، يشترك بها سائر القطاعات الشعبية الكادحة والمناضلة ، وان النظام القائم يشكل عقبة كبرى في وجه تطلعاتها وما تصبو اليه .

اقول عندما نرى هذه الفئة من الشعراء على مثل هذه الحال من التعامل والموقف ، وانها ملتزمة تاريخيا وحاليا ومستقبلا بمعاناتها ، نرى الفئة الثانية في موقف ليبرالي « يلتمس الابعاد الكثيفة للرؤيا الجمالية ويحتضن فكرة البعث والحرية بابعادها الميتافيزيقية ودلالاتها المتحللة من الالتزامات التاريخية او فكرة الخلاص الفردية، او في العبثية ، والخروج المطلق من المعاناة التاريخية » (1)

وفيما نرى الواقع اللبناني الراهن يضج بعدة عوامل اجتماعية وسياسية متفاقمة من جراء الاوضاع المعاشية التي يعاني منها القسم الاكبر من المواطنين ، نرى القطاعات الجماهيرية ايضا تتململ وتنتفض عن مواقف ومحاولات ترمي جميعا الى تجاوز الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي العام المتردي في كثير من جوانبه ووجوهه .كما نرى (وهذا امر بات معروفا جدا على الصعيدين العربي والدولي)الحالة العامة المضطربة من جراء الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على حدود لبنان الجنوبية وعلى قراه وما تلحقه بها من تدمير وتقتيل . وهذا الوضع ان دل على شيء فعلى حركة حياة مستمرة ، لا تعرف السكون والاستقرار على حالة معينة .

لكن هذا الوضع (وهو جانب من الوضع العربي العام) لا ينعكس في حركة الشعر اللبناني الحديث ، الا لماما ، سواء في بنية القصيدة الجديدة ، او ما تعالجه . والسبب في ذلك ان ليس ثمة معاناة فعلية لدى اكثرية الشعراء اللبنانيين ، بحكم قلة ارتباطهم بقضايا الشعب والواقع . لهذا نجد هذه الاكثرية تصور في شعرها قضايا ومشاعر ليس لها فيها سوى القليل النادر مما ينبغي، لكي يجيء شعرها متعاملا مع الواقع تعاملا ثوريا وجماليا يرمي الى تبديله .

وخلاصة القول ، ان الشعر اللبناني الحديث ، يعاني كما الشعر العربي على العموم ، من ازمة جديدة ، رافقت التطورات الاجتماعية الحديثة التي عصفت بالامة العربية عقب حربي حزيران وتشرين ،وما كان لها من انعكاسات سلبية ثم ايجابية على النفسية العربية الخاصة والعامة .

لكن هذه الازمة ليست من النوع الذي يحمل على التشاؤم بمستقبل شعرنا العربي . لان هذا الشعر قد استطاع ، برغم كل الانتكاسات التي مني بها ، ان يستمر في خطه الصاعد ، ليقدم ما يطيب لنا تسميته بالقصيدة الجديدة في الشعر العربي الحديث .

ان هذه القصيدة الجديدة المناقضة للاتجاهات العدمية ، هي ضد كل الاعراف السلبية السائدة بطبيعتها الفنية . انها ثورة في الشعر،

---

(1) د . ميشال عاصي : الاداب ـ عدد نيسان ١٩٧٣ .

ومعنى ذلك انها ثورة مستمرة على كل الجبهات الفنية والاجتماعية ، شرط ان تظل شعرا حتى في اعنف الصرخات الضرورية بالنسبة لاصوات التمرد والثورة والحرية ، وان لا تستقر على شكل او حالة معينين. فهي ، بحكم ما تناهت اليه حركة الشعر العربي الحديث ، حركة كما حركة الواقع ، تسعى دائما الى ايجاد شكلها الجديد .

ولقد أساء بعض الشعراء اللبنانيين الى مفهوم « القصيدة الجديدة » هذه ، بخطأ فهمهم كلاما على الشعر تنظيريا ، من مثل قول الشاعر « بودلير » : ان الشعر لا هدف له الا ذاته » . ذلك لان الشاعر الفرنسي العظيم لم يترك المسألة مقصورة على هذا الحد، وانما اضاف قائلا : « لست اريد بهذا القول ان الشاعر لا يسمو بالشيم ـ وليفهمني الناس جيدا ـ وان حصيلته النهائية ليست السمو بالانسان فوق مستوى المصالح التافهة ، ان هذا بالطبع لضرب من العبث .. فالشعر يصبح تمردا في السجن وفي نافذة المستشفى املا حارا بالشفاء ، وفي السترة الممزقة المتسخة يزدهي كجنية من ظرف واناقة .. ويصبح في كل مكان نقيض العسف (١).

والحق ، ان هذا البعض المشار اليه ، قد اخطأ ايضا في فهم فنية القصيدة الجديدة ، فحسبها ذاكرته الخاصة ، لا ذاكرة الشعب ، فجاءت اشكال قصائده مترفة حتى التفاهة ، ومسطحه بحيث تضارع الارض آليباب . ومن هنا عجز هؤلاء الشعراء عن مواكبة التطور الاجتماعي ، كما عجز شعرهم عن حمل اي اثر متبادل بين الفن وبين الواقع الذي يعيش فيه ، او يوازيه في احسن احتمال .

ان كل شعر ، لا يصدر الا عن ذاكرة خاصة ، لا يمكن الا ان يكون غامضا وقاصرا (ولا اقول صعبا) لانه لن يكون شيئا اذا كان واضحا ، او مقاربا الوضوح . فالغموض في الشعر انما يكون بسبب كون الافكار والاحاسيس التي يريد الشاعر ان يعبر عنها ناقصة مهزوزة ، ضحلة من كل ما يتيح لها الامتداد في الذات العامة ، ويمكنها بشكل او بآخر ، من الوصول الى المتلقي ، لكي تفعل فيه بعض ما فعلت في الشاعر عند اعتمالها في داخله اعتمالا فنيا .

اما الصعوبة ، وقد تحصل في الشعر العظيم ، فهي ناجمة عن امرين اساسيين ، اولهما : اللغة التي يستخدمها الشاعر في بناء قصيدته الجديدة ، ثم الصورة الفنية التي تشكل وعاء افكاره واحاسيسه المكثفة . ولن يكون للشاعر هنا دور في هذه الصعوبة . لانها نتاج تفاعل معين مع اللغة والصورة معا . وتكون الفجيعة ، من بعد ، لدى الشاعر المزيف ـ وان انسم بوقارها ـ عندما يدرك القارىء المتوسط الثقافة ان الصعوبة في شعره ناجمة عن رغبة في تغطية الفراغ الفكري الذي يعتريه ، عن طريق استخدام لغة تقليدية، ليس فيها من الجديد سوى قدرة على الابهار .

ان الوقوع في مثل هذه المهاوي القاتلة ، لما يفسد على القصيدة الجديدة في الشعر اللبناني والعربي الحديث ، قيمتها الفنية ، كما انه يفقدها اثرها المتبادل بين تطورها الفني والتطور الاجتماعي العام . وهنا يجدر بنا التأكيد على الدور الذي يمارسه شكل هذه القصيدة في نطاق الشعر العام . فلا قصيدة جديدة بدون شكل جديد. ولا تطور ولا جدة الا بتطور الاشكال الفنية للقصيدة وتطور مضمونها معا. ولقد كنا وما زلنا ، نستخدم في شعرنا ، ونقول بوجوب استخدام كل الاشكال والايقاعات المعروفة ، من خارجية وداخلية ، في نطاق القصيدة الجديدة ، ونصر على البحث عن اشكال وايقاعات جديدة اخرى . وهذا انطلاقا من مفهومنا بأن الحياة حركة تبحث دائما عن شكلها . حتى اذا وجدته في لحظة تاريخية معينة ، لم تستقر عليه الا الفترة التي تشكل تحفزا للانطلاق من جديد بحثا عن شكل لها اخر يكون مرهونا بعوامل حركتها الجدلية المستمرة . ولهذا فكل قول بوصول القصيدة العربية الجديدة الى شكل معين ،والاستقرار عليه بوصفه اخر ما يمكن ان تبلغه من تطور ، انما هو قول مردود ، من وجهة فلسفية وفنية ، لانه مخالف لطبيعة الحركة في الواقع، ولشروط ظهور اية ظاهرة ، كما انه يشكل بحد ذاته مفهوما سكونيا ناباه جدلية الحياة ، وطبيعة الفن على السواء .

ان حركة الواقع لتتضمن ، بالضرورة ، العديد من الاشكال والايقاعات والمضامين . وعلى الشاعر المبدع ان يبحث دائما عن هذه الاشكال والايقاعات والمضامين ، لكي يظل شعره قادرا على استبطان هذه الحركة ومرهصا بالحلم الكبير في نطاق الوجود . هذه حقيقة الشعر ، وانها لحقيقة الطليعة في الشعر اللبناني الحديث التي انطلقت في فجاج الارض الشعرية وعدتها لغة ، ورؤى وايقاعات ، وجمالية جديدة فوامها ومدارها الانسان الراغب في رؤية مأساته تحترق امامه ، لينطلق حرا الى مشارف الافق البعيد .

فمنذ مدة طويلة « هبط الشعراء من القمم التي ظنوا انهم يتسنمونها وذهبوا في الشوارع ، وشتموا معلميهم ، ولم يبق لهم ارباب ، وتجرأوا على تقبيل ثغر الجمال والحب ، وتعلموا اناشيد تمرد الجمهور البائس ، ويحاولون دونما ارتداد ، ان يلقنوه اناشيدهم » .(١)

حقا ، ان طواف الشاعر الشوارع ،وشتم الاصنام ، والتخلي عن الارباب وتقبيل ثغر الجمال والحب ، لغير منفصلة عن التعرف باناشيد تمرد الشعب البائس ، وعن وجوب تلقين الشعب اناشيده، ومد العين الى افاق لم ترها باصرة من قبل .

بيروت

---

(١) بودلير ـ المؤلفات ـ المجلد الثاني ١٩٤٠ ـ الفن الرومنطيقي ص ، ٤١٢ .

---

(١) بول ايلوار : « اناحة النظر » صفحة ٨٤ .

مكتبة انطوان

شارع الامير بشير ـ بيروت

تقدم اكبر مجموعة من كتب الهدايا

في مختلف اللغات العربية والافرنسية والانكليزية

موسوعات مصورة ، علوم متنوعة

ثقافة شاملة ـ حضارات الامم

مكتبة انطوان ـ شارع الامير بشير ـ بيروت